على نمط المقامات

فى العـــيد

الأستاذ على متولى صلاح

حدثنا أبو الحسن القسطاطيّ قال :

قضيت شهر رمضان المعظم هذا العام — إلا أقله — فى عزلة عن الحياه ، أتقرب بالعزلة إلى الله ، وأبتهل إليه وأبتغى رضاه ، فكنت أقضى النهار صياماً ، والليل قياماً ، وألزمت نفسى ألا تنطق إلا لماماً ، وألا تقارف آثاماً ، وألا تقول إلا سلاماً ، والتزمتُ هذه الحال ثمانياً وعشرين من الليال ...

ولما أوشك رمضان الكريم على النهايه ، وأشرف على الغايه ، حدثتنى النفس الأمارة بالسوء ، التواقة دائماً إلى ما يسوء ، أن أنفلت من هذا العقال ، وأتحلل من تلك الأغلال ، وأسعد نفسى بالأنس بين الصحاب ، والسمر بين الأحباب ، وأتقل وإياهم الحديث فى العلوم والآداب ، فذلك عندى وعندهم أشهى الرغاب ، وما خضنا علم الله يوماً فى حديث نمّ أو اغتياب ، ولا ذكرنا وقاك الله حديث أعراض ولا أنساب ...

قصدت إلى تلك الصومعة الجميلة ، والظُّلة الظليلة ، صومعة الأدب والأدباء ، ومثوى الشعر والشعراء ، تلك التى أنشأها مُقام الأستاذ الزيات بالمنصورة الحبيبة حيناً من الدهر ، كان والله فى مثل عمر الزهر ، وكان — وحقك — عهداً ما برحت نشوته فى الفؤاد ، وما زال برده فى الأكباد ، وما فتىء حديثه هو الحديث المعاد ، ليته بقى ودام ، إلى هاتيك الأيام ...

وفى جوار تلك « الكافورة الحسناء » الكاملة البهاء ، الحانية على النيل الجميل كأنها الرحمة والعطف والمحبة تهبط من السماء ، تلك التى خلدها الزيات بآيات من السحر ، ما هى من نثر ، ولا هى من شعر ، ولكنها من الدر والتبر ، فى جوارها أخذت مكانى ، وآثرت الجلوس منتظراً إخوانى ، وطال بى المكث والانتظار ، وما وافانى منهم ديار ، ولا نافخ نار ، فجلست وحدى أتأمل ما يفعل الناس فى شهر الصيام وما يقولون ، وفى أى حديث يخوضون ، فما راعنى إلا أن أسمع الناس يسبُّون شهر رمضان ويلعنون ، ويتضجرون منه ويتململون ، ويودون فراقه ويشتهون ، ويصفونه بأقبح الصفات ، ويشيعونه بأسوأ اللعنات ، فسألت نفسى فيم يصوم هؤلاء ويمسكون ؟ وما زالوا باللغو والباطل يتمسكون ؟ أم هم على الصيام والإمساك مكرهون ؟ . . . والصوم كما أفهم عبادة مردها إلى الضمائر ، ومرجعها إلى السرائر ، ليست عبادة نفاق ، ولا تجارة للارتزاق ، ولا يقصد بها سوى الخلاق ! ومن أراد أن يبدو للناس صائماً وهو عند الله مفطر كان ذلك عليه يسيرا ، لا عسيرا ! أما أن يمسك عن الطعام ، ولا يفتأ يسب الصيام ، كأنه على فعله مسير ، لا مخير ، فذلك مالا أستطيع له تأويلا ، ولا أعرف له تعليلا ...

ورجعت إلى دارى وقد انتصف الليل أو كاد ، وأنا فى إبراق وإرعاد ، أسب هؤلاء الأوغاد ، وأحمد الله على تلك الوحدة والانفراد ...

وفى الليلة التالية — وكانت آخر ليالى رمضان — ذهبت كدأبى إلى مكانى المعهود ، ومراحى المنشود ، فما عتمت أن رأيت الناس وقد تنفسوا الصعداء ، وأبرقت أساريرهم بالبشر والصفاء ، كأنما انحطت أثقالهم ، وانفكت أغلالهم ، وتحللوا من وقر لا يطيقونه ، وأسر لا يحتملونه ، ولا حديث لهم إلا ما كانوا يحرمون فى رمضان من لذات ، ويمنعون من طيبات ، ورأيت فيما رأيت بعد برهة شخصاً يخب فى السير ، حتى ليكاد أن يطير ، فلما وقع بصره على إخوانه فى السهر ، ورفاقه فى ليالى السمر ، صاح فيهم يقول :

رمضان ولى هاتها يا ساقى ...!!

فرد عليه جميعهم فى صوت واحد ، وكل منهم يشير إلى صدر نفسه قائلا :

مشتاقة تسعى إلى مشتاق !

وسرعان ما أداروا بينهم الكؤوس ، حتى مالت الرءوس ، فخرقلت ورجعت ، ومن الشيطان بالله استعذت ، وقلت : ليلة أخرى أحتسبها عند الله ، الذى لا يحمد على مكروه سواه ، وهرولت إلى بيتى كاسف البال ، سيئ الحال ، أعجب كيف لم يهذب الصيام تلك القلوب الكاشحة ، ولم يكبح تلك الطبائع الجامحة ...

وفى فجر يوم العيد الأغر ، وبعد انبلاج صبحه الأزهر ، خرجت ألتمس العظات ، بزيارة الأموات ، فقصدت إلى تلك الصحراء الموحشة التى ينتهى إليها الجميع ، الرفيع منهم والوضيع ، والمتبوع منهم والتبيع ، تلك التى تسكن النفوس عندها وتخشع ، وتتأمل القلوب لديها وتخضع ، وتزهد الطامع فيما فيه يطمع ، وإليه ينزع ، ... فإذا بى أرى عندها مما تندى له الجباه ، مالا يصل الخيال إلى مداه ! وما ظنك بنساء حول المقابر متبذلات ، غير محتشمات ، ولا مؤدبات ؟ قد أخذن زخرفهن وازين بأفخر اللباس ، ليبهرن عقول الناس ؟ ورجال قد خلعوا العذار ، وتركوا الوقار ، ونصبوا الحلقات للأحاديث والأسمار ، لا للعظة والاعتبار ، كأنهم وحقك فى قصور ، لا فى قبور !

وشبان مفتونين قد جاءوا إلى المقابر جماعات ، يسعون وراء الغادات ، الرائحات الغاديات ، ويغمزون لهن بأطراف الأحداق ، ويبثونهن لواعج الصبابة والأشواق ، ويظهرون لهن العشق والهوى ، والهيام والجوى ، ونسوا ما حولهم من الرجام ! التى توحى بالآيات العظام ، وتنسى الحب والغرام !

فلما شاهدت هذه الأباطيل ضاقت نفسى ، وهاج حسى ، وعدت إلى دارى وصرت حلسها إلى وقت الأصيل ، فخرجت بلا صديق ولا دليل ، أنعم النظر فى مشاهد العيد وأطيل ، فما كادت والله تقع عينى إلا على شر ، ولا ترى غير هزل ونكر ، ولا تكاد تسمع أذنى إلا الفحش والهجر ، أفواج من الآدميين سائرون كالبهم هنا وهناك بلا أغراض ولا أهداف ، كأنهم قطيع من الخراف ، يسيرون — وقاك الله — كما تشاء لهم أرجلهم عن اليمين أو عن اليسار أو فى المنتصف مشية الفرح والزهو والسرور ، استمتاعاً بما تبيحه لهم حرية السير والمرور !

وعربات تكدست بالأجسام التى تقنى بأنكر الأصوات ، وأقبح النغمات ، كأنها خوار ثيران ، أو نهيق قطعان ، ومجالس ومجتمعات لا للصلاة ولا للدعاء ولا للسجود ، ولكنها لابنة العنقود ! وناهيك بما يدور فيها من حديث الإفك والبهتان ، والغيبة فى الأبرياء والعدوان ، مما تحرمه الأديان ، ويستنكره الديان ، ولا يليق بطبيعة الإنسان !

وكم وراء الستار فى ليالى العيد من أمور ! وكم يخفى ظلام أمسياته من فجور ! وكم تباح حرمات ، وتنال شهوات ، وتدرك غايات ! كأن الناس ما كانوا منذ يوم لله صائمين ، ولحدوده ملتزمين ، أو كأنهم كانوا فى صيامهم هازلين لا جادين :

قال أبو الحسن : فلما رأيت هذه الحال ، وذلك المآل ، فزعت إلى الله أقرأ فى كتابه ، وأقف خاشعاً عند بابه ، وأستزيد من رحمته ومن ثوابه ، وأطلب للناس الهدى والرشاد ، والصواب والسداد ، ثم أنشدت :

ما صام من أمسك عن طعامه
ولم يصم عن اقتراف إثمه
الصوم أن تمسك عن عدوان
وعن أذى ... فى السر والإعلان
إن لم يهذب بالصيام الطبع
فما وراء أن تجوع ... نفع !

(المنصورة) على متولى صلاح

أحدث مطبوعات

دار الكتب الأهلية

بميدان الأوبرا ت ٤٩٥٦١

صـ	
٣٥	رسالة الهناء المعرى شرح الأستاذ كامل كيلانى
٣٠	مغامراتى فى أوربا المحتلة للأستاذ عبد المنعم حسن
١٥	حدث فى باريس للأستاذ أحمد عطية الله
١٠	المنقذة للأستاذ محمود بك تيمور
١٢	حديقة الحلويات للأستاذ عز الدين فراج
١٢	الفاكهة قيمتها الغذائية وفوائدها الطبية للأستاذ عز الدين فراج
١٥	هكذا أغنى للأستاذ محمود حسن إسماعيل
١٥	الوجديات للأستاذ محمد فريد وجدى
١٥	هتلر فى الميزان للأستاذ عباس محمود العقاد

يضاف ٣٠ ٪ مصاريف بريد

المراسلات باسم مديرها : رشدى خليل